مصر والسودان

الرسالة الثالثة في ام درمان

من يقرأ كتاب سلاتين باشا لا يسعهُ ان يزور السودان من غير ان يدخل ام درمان ويرى ما فيها من الاماكن المذكورة فيهِ ولو كانت ذكراها ترتسم منها المفاصل وتقشعر لها الابدان. ولم أكد ادخل باب هذه المدينة حتى تذكرت كل ما قرأتهُ عنها فتخيلت الجموع في ساحة الجامع تنصبُّ عليهم اشعة الشمس المحرقة وهم اوفر شملهم النظم واشتركوا في الضراء وسلاتين باشا نفسهُ راكع تحت الكوة التي يطل منها الخليفة يفكر في وسيلة ينجو بها من الاسر والعذاب وكأن بلاد السودان تركت للسيف والجوع والاوبئة حتى يفنى سكانها وتخرب ديارها ولا يبقى فيها لحضارة اثر. ثم خطرت ببالي الساحة التي كان الاسرى والمتهمون يعلقون فيها او تضرب اعناقهم او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف لا لذنب جنوهُ بل ارضاء لاهواء الخليفة وتلتها صورة السجن الذي كوه ذلك الطاغية ان يسميهُ سجناً فسماهُ "سائرًا" وكان الاول بوان يسميهُ سعيرًا وكأني كنت ارى فيهِ المئات من الرجال بعضهم فوق بعض والقيود والاغلال في ايديهم وارجلهم واعناقهم وهم عجاف الابدان يتبلغون بحفنة من الذرة او يشون من الحيات وألسنتهم تكاد تتشقق من حرارتها ولا احد يبرد لظاهم بقطرة ماء

هذه الصور ترددت على مخيلتي قبلما دخلنا بيت الامانة الذي كان بمثابة دار التحف والاسلحة ثم دخلناهُ ورأينا ما فيهِ من المدافع القديمة العفريتة من ايام محمد علي وسعيد باشا والمدافع الكثيرة الطلقات المأخوذة من حملة هكس باشا ومطبعة الحجر التي كانت في الخرطوم يوم خربها الدراويش والبنادق والحراب والفرود وآلات صك النقود وعمل الخرطوش التي صنعوها فوقفت مدهوشًا من رجل تسلط على بلاد فيها عمران يفوق في كثير من وسائله العمران الذي كان في عهد الفراعنة والبطالسة والقياصرة ورأى فيها اناسًا يعرفون الطباعة وعمل البارود واستعمال الآلات الميكانيكية الحديثة الاختراع ويصنعون آلات عمل الخرطوش ويصكون النقود ومع ذلك لم يستطع ان ينمي ذلك العمران ولا ان يحتفظ بهِ وغاية ما استفادهُ منهُ انهُ استخدمهُ لقتل الناس وتعذيبهم

ولقد سألت كثيرين من الشيوخ الذين لقيتهم في ام درمان عما اذا كان قد انشأ مدرسة في تلك المدينة او غيرها من المدن او عمل عملاً نافعًا يشكر عليهِ فاجابوني بالنفي المطلق

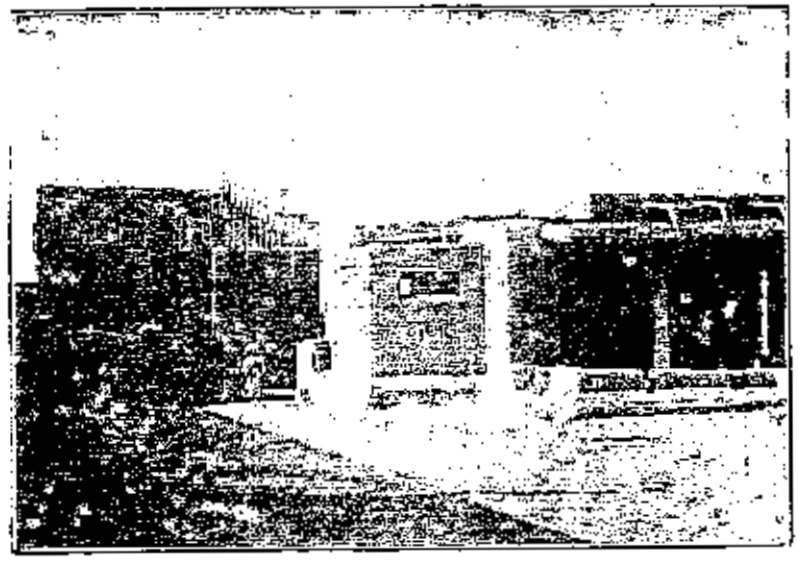

صورة بيت الخليفة في ام درمان

صورة قبر المهدي في ام درمان في حالته الحاضرة

وانتقلنا من بيت الامانة الى بيت الخليفة وجلنا في غرفه المختلفة وصعدنا الى العلية التي كان الخليفة يقيم فيها فيشرف على المصلين (لان الجامع ساحة كبيرة مكشوفة يحيط بها سور غير مرتفع) ويصعد على سطحها فيرى كل ام درمان وما حولها وشاهدنا ما في بيته من الاسراديب الكثيرة التي تمكنه من الهرب والاختفاء اذا فاجأه عدو مهاجم وتدل على انه كان يعلم مقدار ما ابغاه في النفوس من الحقد والعداء

وبناء هذا البيت وبيت الامانة وبيت اخيه يعقوب وغيرها من البيوت المشهورة حقير زري بعضها بالطوب الاحمر المأخوذ من بناء القصر والجامع والكنيسة في الخرطوم وبعضها بالطوب الاخضر المجفف في الشمس ولا شيء فيها من حسن الهندسة والرونق . ولم اصدق وانا في بيت الخليفة انني في بيت رجل كانت بلاد السودان كلها ترتجف من مهابته والحكومة المصرية تخشى سطوته وتحسب له الف حساب . ولا يفسر انصياع اهالي السودان لاوامره وبينهم الامراء والعظماء والجنود والقسباط والتجار الا بان الدعوة الدينية تستهوي النفوس وتستلب العقول ولا سيما اذا اقترنت بالتخويف والارهاب

ثم وصلنا الى قبر المهدي وهنا وقفت مفكرا في امر ذلك الرجل وكيف خدعه الخليفة حتى ادعى دعوة دينية وفي سهولة انقياد الناس للذين يأتونهم من طريق الدين . وانتقلت من التفكير في ذلك الى شكل البناء ومتانته وحسن صنعته وكنت قد قرأت وسمعت ان بانيه ايطالي ولم يزل حيا يرزق فكان في طاقة الخليفة ان يستعين به وبامثاله على بناء المباني المتقنة ولكنه لم يفعل ذلك حتى يبقى مدفن المهدي ممتازا على كل المباني في السودان فيكون كعبة يحج الناس اليها ويتمتع الحج الى البيت الحرام

ثم جلنا في اسواق المدينة فدهشت من كثرتها وحقارتها ولكنني لم البث ان رأيت آثار الحكم الجديد فيها فان الدكاكين التي بنيت حديثا كبيرة واسعة الابواب كأنها في مدينة من مدن القطر المصري وعلى وجوه الناس سمات الرضى والسرور فقابلت بين ذلك وبين ما ذكره السر رجينلد ونجت باشا في كتابه " المهدوية " وما كتبه سلاتين باشا والاب امبروزيني ونعوم بك شقير عن احوال الناس في ايام المهدوية فقلت انه جدير بهؤلاء ان يشكروا الله ومتقدميهم صباح مساء والا فالانسان ناكر للجميل وكافر بالنعم . ولا شبهة في انه كان لاختيار سلاتين باشا وما تحملته مدة اسره شأن كبير في استرجاع السودان فله في ذلك فضل كبير لا ينكر

وشوارع ام درمان نظيفة كلها حسن اعتناء الحكومة . وسكانها نحو خمسين الفا نواوضها

صخرية عالية وهواؤها طيب وبيوتها متفرقة وحول كل بيت منها حوش كبير . وفيها تجارة واسعة فان اهالي جنوب السودان وغربه يتبضعون منها ولاهلها مهارة في صياغة الفضة وخرط العاج والقرن والابنوس وحياكة القطن البلدي وفيها مئات من التجار السوريين واكثرهم من اهالي حلب وتشم رائحة العود والعندل والافاويه في اسواقها كما تشم في اسواق دمشق . ويلغني ان الحكومة عينت مبلغاً طائلاً من المال لتنظيم شوارعها واصلاحها

وقد لقيت في ام درمان ضابطاً مصرياً عربي الاصل (حمدي افندي سيف النصر) لا يزال كثيرون من اقاربه يلبسون ملابس البدو في هذا القطر الى الآن . دعانا الى بيته لتناول الشاي فيه فجلسنا حول مائدة كأننا في بيت رجل اوربي من السراة وهو يحسن الانكليزية ويجاري ضباط الانكليز في اشهر لعبة من العابهم الرياضية التي نقلوها عن امراء الهند والفرس وهي لعبة البولو او الكرة والصولجان وعنده اثمن الجياد واسرعها لهذه الغاية والغالب انه يجاري ملاعبيه او يفوز عليهم فيحسبونه واحداً منهم وهم قلما يعترفون بذلك لضابط اوربي من غير جنسهم

ودعينا في المساء لمشاهدة الرقص السوداني المعروف بالدلوكة ولا يرقصه الحراتريل الجواري اللواتي اصلهن من الرقيق وهو قبيح لذاته لكنه يري تأثير الاصوات المؤلفة في الاعصاب فان اولئك الجواري كن يتحركن ويتمايلن كأنهن مرتبطات بايدي الضاربات على الدربكة . والناس مهما انحط شأنهم واختت عليهم السنون لا ينفكون عن محبة الطرب . ولا غرابة في ذلك فان التموجات نفسها تطرب على نغم الموسيقى وفي اصواتها وحركاتها شيء من التوقيع

وشاهدت الترمواي البخاري في ام درمان والسودانيون يصعدون اليه وينزلون منه كأنه من مراكبهم التي الفوها هم واسلافهم من قبلهم فقلت في نفسي ما اسرع انتشار اسباب الحضارة وما اسهل اعتياد الانسان عليها ولكن هل تتأصل هذه الاسباب في البلاد وتنمو فيها كما تنمو الغرس في التربة الصالحة له او تبقى عارية كالازهار الصناعية على شجرة عيد الميلاد . هل يقوم من السودانيين انفسهم اناس يناظرون الاوربيين في عمل المركبات البخارية والآلات الكهربائية ويخترعون ويستنبطون كما يقوم من سكان سويسرا اناس يناظرون الانكليز ومن سكان المانيا اناس يناظرون الفرنسويين ومن سكان اميركا اناس يناظرون الاوربيين فلا يكتشف انسان اكتشافاً ولا يخترع اختراعاً حتى ترى كثيرين استعملوا اكتشافه او اختراعه او اكتشفوا واخترعوا ما يماثله او يفوقه احكاماً فلم يكد هرتز الالماني يكتشف الامواج الكهربائية المنسوبة اليه حتى استخدمها مركوني في تلغرافه ولم يكد مركوني يشهر

تلفراف حتى ناظره سلاطي الالماني ودفرست الاميركاني وغيرهما من الانكليز والفرنسويين . فهل يتأصل العمران الحديث في مصر والسودان ويتموفيهما او يبقى عمرانا عارية وتقليداً . هذه مسالة يطرق لديها الكرى خنوعاً ولم انظر فيها مرة الاَّ اعترتني دهشة وخفت ان يصدق علينا ما قيل من اننا شعوب قديمة شاخت واضمحلت ولا يرجى ان يتجدد شبابها ولولا ما بدا من اهل يابان حديثاً لما بقي في قوس الرجاء منزع

واتفق دخولي ام درمان في يوم حرُّهُ قليل بالنسبة الى حر السودان ولكنهُ ليس قليلاً بالنسبة الى حر هذا القطر بلغت درجتهُ في النهار السادسة والثلاثين ثم انحطت في المساء جداً حتى اضطررنا ان نلبس لوديتنا فوق ثيابنا . ولقيت بعد ذلك اثنين من شبان الانكليز ابن وزير ماليتهم الجالي وابن السركولن سكوت منكريف وكنت اظنهما مقيمين في الخرطوم فقالا كلاَّ بل اقامتنا في ام درمان نفسها ونحن نفضلها عن الخرطوم حتى في شهور الحر لاننا نكون فيها مع الوطنيين ولاجلهم اتينا هذه البلاد . فادهشني ذلك منهما وقلت كم شاب من اولاد وزراء مصر يرضى ان يقيم سيفي مدن السودان في شهور الحر لكي يخدم اهاليها . لا شبهة ان الشعب السكسوني عالي الهمة شديد العزيمة والاَّ ما دان لهُ ربع المعمور

الرسالة الرابعة في معاهد التعليم في السودان

ليس من غرضي وصف مدارس السودان وذكر عدد تلامذتها ومقدار نفقاتها وانواع العلوم التي تدرَّس فيها فاني لا اعلم من ذلك غير ما يمكن الاطلاع عليهِ في تقارير حكومة السودان السنوية ولاسيما تقرير مدير المعارف بل غرضي وصف ما رأيتهُ حيث يتعلم الانسان بعينيهِ ويديهِ اي حيث ينتج العلم من العمل لا حيث يراد ان ينتج العمل من العلم ليبقى العلم عقيماً والعمل سقيماً

لما دخلت مدرسة غوردون وجلت في غرفها المختلفة ورأيت تلامذتها يعملون الاعمال الحسابية او يتمرنون في الكتابة والترجمة لم ادقق نظري في ذلك لعلمي انها مثل غيرها من نوعها وان اكثر هذا التعليم النظري يذهب ضياعاً فان من مئة تلميذ يتمون دروسهم في مدرسة ابتدائية لا يشتغل اكثر من خمسة منهم بالعلم والباقون يبلغون سن الشباب والكهولة وهم لا يتذكرون من قواعد الحساب غير الجمع والطرح والضرب والقسمة ومن علم الجغرافية غير اسماء عواصم بعض الممالك وينسون كل قواعد النحو والبيان ولا يفرقون عن الذين لم يتعلموا مثلهم لا في اعمالهم ولا في معاملاتهم

اتاني رجل منذ اربع سنوات واستشارني في امر ولده وهو فتى في الرابعة عشرة من عمره وسألني هل يبعث به الى مدرسة يتعلم فيها قواعد العربية والانكليزية او يخدمهُ في مكان حيث يتمرَّن على هاتين اللغتين كتابةً وانشاءً فاشرت عليهِ بالثاني . وولدهُ الآن اقدر على الكتابة بالعربية والانكليزية من الذين درسوا سنين كثيرة في المدارس الكلية . وهذا الامر مضطرد في سائر الاعمال فان العمل والمزاولة اقدر من المدارس على تعليمها

قلت اني لم ادقق النظر في غرف التدريس في مدرسة غوردون لعلمي انها مثل غيرها من نوعها ولكنني كنت التفت لارى نسبة السودانيين الى غيرهم كما يعلم من هيآتهم والوانهم فوجدت ان التلامذة الذين من اصل غير سوداني اكثر من الذين من اصل سوداني ولكن لا يظهر ان بين الفريقين بوناً في الذكاء والاجتهاد . وكنت قد سمعت ان في المدرسة امكنة للعمل (ورشاً) فبادرت اليها ورأيت فيها العلم الحقيقي الذي يربي فريقاً كبيراً من رجال السودان ولا اريد بذلك انهُ يربي القضاة والمفتين والكتَّاب والمعلمين بل اريد انهُ يربي رجال الاعمال — يربي الصناع والتجار والملاَّك — يربي رجالاً مثل ستفنصن واديصن وركفلر وويرهوسر كما يربي الحدادين والنجارين والفلاحين وكل الذين يستخرون خيرات الارض ويوجدون ثروتها ومن تعب ايديهم يعيش القاضي والمفتي والكاتب والمعلم . الى هؤلاء الصناع والعمال تحتاج البلاد وعليهم يتوقف عمرانها

وفي المدرسة فرع لتعليم المعلمين وفرع آخر لتعليم القضاة ولكن البلد الذي يكفيهِ معلم واحد وقاضٍ واحد لا يكفيهِ الف صانع وعامل فالبلاد احوج الى الصناع والعمال منها الى كل احد سواهم هؤلاء يستخرجون الخيرات من الارض ويوجدون النفع بعملهم في ما لا نفع منهُ من الخشب والمعدن ولو كانت البلاد لا تستغني عن القضاة والمعلمين

وقد رأيت في هذه الاماكن اعمال الحدادة على انواعها كسبك الحديد وتطريقهِ وخرطهِ وتسهيلهِ وصقلهِ ودهنهِ وعمل الآلات والادوات منهُ . واعمال النجارة على انواعها كنشر الخشب وجليهِ وصقلهِ وعمل الخزائن والموائد والصناديق ودهنها بالادهان المختلفة . والآلات التي تعرف بها متانة مواد البناء على انواعها واشكالها . والعمال من تلامذة المدرسة ومعلميهم من الاوربيين والمصريين وهم دائبون على عملهم كما هم دائبون على دروسهم ولقد احسن السر وليم ماذر الذي منح المدرسة هذه المعامل فانهُ انفق ما انفقهُ من المال على انفع الامور لبلاد السودان

وقبل غوردي من الخرطوم زرت دار الصنعة حيث تبنى السفن الصغيرة والكبيرة وهناك معمل كبير جداً يديرهُ بوند بك تجارة فائقة فرأيت فيهِ سفينة تبنى على الشاطئ واكثر

خشبها من بلاد السودان وهو صلب جدًّا اصلب من خشب السنديان واحسك منهُ دقائق حتى يجد العمال اكبر مشقة في نشره. وسفينة بخارية تم تجديدها او بناؤها لان اكثر اجزائها صنع جديدًا وفيها من اتقان الصنعة ووسائل الراحة والرفاهة ما لا يرى اوفى منهُ في السفن البخارية النيلية التي يؤتى بها من اوربا وكان الدهانون لا يزالون يحدون الورنيش على دهانها

ودخلت اماكن النجارين فرأيتهم يصنعون ادوات مختلفة ويستخدمون احدث الآلات لنشر الخشب وخرطهِ وجليهِ وصقله وعمل الادوات المختلفة منهُ والمناشير الدائمة والمستديرة تدور بالبخار وكذا آلات الجلي ليست من نوع الفارة التي يعتمد فيها على مهارة اليد بل من النوع الذي يدور دورانًا سريعًا فيجلو سطح الخشب على تمام الدقة والانتظام. ورايت هناك نوعًا من الخشب يشبه خشب الجوز تمامًا في لونهِ وتموجه وانحناك دقائقهِ واحتالهِ للصقل قال لي برند بك انهُ من اعالي السودان. وهناك نجار شيخ من عهد غوردون باشا مشهور بعمل القوالب واتقان صناعة النجارة فصنع لي منهُ محفظة لعيدان الكبريت يفضل خشبها على خشب الجوز. والظاهر ان البلاد غنيَّة بالخشب الجيد الذي يسهل نقلهُ بالنيل ولا يبعد ان تستغني بهِ عن اكثر ما يرد اليها من البلدان الاخرى

ثم دخلت اماكن الحدادين والبرادين فرايتهم يصنعون كل ما يحتاج اليهِ اصلاح سكك الحديد وسفن النيل وما تدعو الحال الى عمله جديدًا في بلاد السودان والآلات كلها تدار بالكهربائية وتنار بالكهربائية واكثر العمال من السودانيين والمصريين وبعضهم كانوا في عهد غوردون باشا وباكر باشا وسر عليهم حكم الدراويش بفظائعهِ ولم يفقدهم مهارتهم

ورؤساء العمل في هذه المعامل كلها يعترفون للعمال الوطنيين مصريين كانوا او سودانيين بالمهارة ولكنهم يشكون مرَّ الشكوى من قلة العمال السودانيين ومن انهم اذا شبعوا وكان عندهم قوت يومين ابطلوا العمل. وقد عنيت الحكومة ببناء البيوت لهم ليسكنوا فيها هم ونساؤهم واولادهم لكي لا ينقطعوا عن العمل ومع ذلك لا تستطيع ان تعتمد عليهم دائمًا كأن طبع الكسل او القناعة متمكن منهم يصعب عليهم نزعهُ وكثيرون منهم يدمنون المسكرات اذا وجدوا في يدهم نقودًا يبتاعونها بها وعندهم نوع من المسكر يصنعونهُ ويسكرون بهِ ويشربون ايضًا المسكرات الاوربية اذا امكنهم الوصول اليها حتى لقد يشربون الالكحول. وهذه آفة أخرى فوق الكسل وضعف على آلة. فاذا لم تنشأ فيهم اخلاق جديدة تقوي ملكة الاجتهاد وتمنعهم من ادمان المسكرات فمستقبلهم غير مأمون. وهنا اوسع مجال للمعلمين والمرشدين الذين يتحرون خير تلك البلاد وفلاح سكانها